

رابعاً : الدول المستقلة

1 - الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (160-296هـ/776-908م)

تعتبر الدولة الرستمية أول تجربة لإقامة إمامة إباضية خارجية، والإباضيون من الخوارج، وقد كانوا ينادون دائماً بالدولة المثالية، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية، لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه. وتحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها، إماما يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق الشريعة الإسلامية.<sup>1</sup> والإباضية هي إحدى فرق الخوارج، وتنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي. ويدعي أصحابها أنهم ليسوا خوارج، وينفون عن أنفسهم هذه النسبة. بل إنهم يغضبون كثيراً حين يسمعون أحداً ينسبهم إلى الخوارج، ويبرؤون من تسميتهم بالخوارج ويقولون: نحن إباضية، كالشافعية والحنفية والمالكية، ويقولون: إنهم زُموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشيّة، أي التزام كون الإمام من القرشيين. وقد دخل مذهب الإباضية إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وانتشر بين بعض قبائل البربر حتى أصبح مذهبهم الرسمي. وتتفق عقيدة الإباضية مع أهل السنّة في الكثير، وتختلف معهم في القليل.

لم يستطع عبد الله بن إباض أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضي في المشرق، ولكن أحد تلاميذه، وهو سلمة بن سعيد، ذهب إلى المغرب وتبين له أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضي فيه، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر الشلف. وهذا اليعقوبي يقرر أن "مدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب"، وكل ما يقع إلى الغرب من نهر الشلف كان تحت سلطة الخوارج.<sup>2</sup> ولم يكن للخلافة العباسية أو ولايتها سلطة على إقليم جبل نفوسة الواقع جنوبي طرابلس، وهو منطقة جبلية واسعة وعرة المسالك، كثيرة الزروع، مما جعلها محصنة طبيعياً، وقد كانت هذه المنطقة ملجأً لجماعات من الخوارج الإباضية الذين اعتصموا بها بعد

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 114.

<sup>2</sup> اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ))، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ص 191.

قدومهم من المشرق. ودار صراع طويل بينهم وبين الأمويين، والمهالبة ثم الأغالبة. ومن حسنات الإباضيين في بلاد المغرب، أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري تمكن في سنة 141هـ/759م، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فسادا، عندما استولت عليها قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طردهم من القيروان، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملا، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة.

غير أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، لاحظ أن بلاد المغرب أصبحت مرتعا وأرضا خصبة للمذاهب والأفكار المعارضة، ولذلك عزم على محاربتها. فأرسل قوة عسكرية يقودها محمد بن الأشعث، وقد تمكنت هذه القوة من الانتصار على الإباضية سنة 144 هـ، واستطاعت أن تخرجهم من القيروان، ثم تقضي على أبي الخطاب عبد الأعلى في جبل نفوسة. ولما رأى عبد الرحمن بن رستم ما حدث لقائده أبو الخطاب، فر مع عدد من أتباعه الإباضيين من القيروان واتجهوا غربا، وعبروا نهر الشلف، حتى وصلوا إلى منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من المغرب الأوسط، واستقروا عند مدينة تاهرت،<sup>1</sup> ولاحظوا أن السلطة العباسية ونظامها لا يمتد إلى هذه المنطقة، وتوجد قبائل بربرية تعيش على بساطتها، وكانت حسنة الإسلام ولكنها كانت في حاجة إلى قائد يوحد بينها ويؤسس منها نظاما سياسيا مستقلا عن طاعة الدول الكبرى، وقائمة على المذهب الإباضي الذي يدعو إلى الإمامة.

عبد الرحمن بن رستم الفارسي الإباضي، تجمع المصادر على نسبته لطبقة الحكام الأكاسرة، لكنها تختلف في التفاصيل.<sup>2</sup> جده بهرام كان مولى لسيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)،<sup>3</sup> وكان أبوه رستم بن بهرام مقيما في المدينة، وقد أتاحت له هذه الإقامة أن يكون قريبا من مولاه أمير المؤمنين.<sup>4</sup> ولما مات والد عبد الرحمن تزوجت أمه من أحد الحجاج المغاربة الذي أخذها معه إلى بلاد المغرب. ويبدو أنه استقر بالقيروان، وأخذ في بيئتها العلمية الزاهرة على كبار علمائها، ولما أصبح شابا يافعا التقى بسلمة بن سعيد الذي قدم إلى بلاد المغرب يدعو للمذهب الإباضي، فتعلق به، ثم توجه إلى البصرة وانضم إلى إخوانه

<sup>1</sup> الجليلي عبد الرحمن محمد، مرجع سابق، ج 1، ص 220.

<sup>2</sup> عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 144.

<sup>3</sup> البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).

<sup>4</sup> الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم للنشر والتوزيع، ط 3، الكويت، 1987. ص 76.

المغاربة في حلقة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة سنة 135 هـ/752 م، حيث قضى خمس سنوات ينهل من حلقاته أصول المذهب وفروعه، ويعد مع إخوانه "حملة العلم المغاربة" مع مشايخ المذهب في البصرة لإقامة "إمامة الظهور"<sup>1</sup> عقب عودتهم إلى بلاد المغرب.<sup>2</sup>

بعد العودة إلى المغرب سنة 140 هـ/757 م، عينه إمامه أبو الخطاب المعافري قاضيا على طرابلس، ثم نائبه في المدينة القيروان، بعد إخراج قبيلة ورفجومة الصفرية منها سنة 141 هـ/758 م، ولما قتل أبو الخطاب إمام الإباضيين في المغرب على يد جيش العباسيين الذي كان يقوده محمد بن الأشعث سنة 144 هـ/761 م، فر عبد الرحمن بن رستم بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط، باحثا عن سبل النجاة من أيدي العباسيين، وآملا في تأسيس دولة على المذهب الإباضي على غرار الدولة التي أسسها أبو الخطاب في طرابلس.<sup>3</sup>

بعد رحلة شاقة وعسيرة، استقر عبد الرحمن في مدينة تاهرت، غير بعيد عن الحصن القديم، وتحولت المدينة فيما بعد إلى مركز سياسي وديني لكل إباضية بلاد المغرب.<sup>4</sup> تقع تاهرت في موقع استراتيجي، فهي محصنة طبيعيا، فمن الصعب الوصول إليها ومن السهل الدفاع عنها. غير أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحا يمكن أهلها من بالإباضية في جبل نفوسة، وبالقبائل البربرية في الصحراء.<sup>5</sup> ولكن تاهرت القديمة كانت صغيرة لا تنفي بالعرض المطلوب، فأنشأ تاهرت الجديدة على ضفة نهر غزير المياه وأحاطها بالأسوار، وأنشأ فيها مسجدا جامعاً وأقام إمامة إباضية تحكم على أساس المبادئ الإباضية. إضافة إلى

---

<sup>1</sup> الإمامة عند الإباضية أربعة : إمامة الظهور وهي واجبة عندما تتوفر شروطها لتأسيس دولة إباضية المذهب، ومن شروطها أن يكونوا بقوة بحيث يستطيعون اختيار حاكم عليهم علنا. وإمامة الدفاع وهي مرحلة بين الظهور والكتمان وتعلن هذه الإمامة عندما يداهم الإباضية من قبل عدو، فيعقدوا الإمامة لمن يمتلك الشجاعة والخبرة العسكرية وتكون له كل الصلاحيات التي يمارسها الإمام في حالة الظهور. أما إمامة الشراء فتكون عندما يخرج إمام بأربعين رجلا فما فوق ويأيعونه على الجهاد في سبيل الله، وأما إمامة الكتمان فهي تعبر عن مرحلة الضعف، وفي هذه المرحلة يركن الإباضية إلى السرية وينتخبون إماما عليهم يكون عادة أعلمهم وأفقههم ويجوزون هنا البقاء تحت حكم غيرهم دون دعوة للثورة. (انظر : بلحاج معروف، مرجع سابق، هامش رقم 15، ص 47).

<sup>2</sup> عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 145.

<sup>3</sup> الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 83-84.

<sup>4</sup> Lewicki Tadeusz, L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle, in : Cahiers d'études africaines, vol. 2, n°8, 1962. p. 514.

<sup>5</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 116.

ذلك، فالمكان بعيد عن الخطر العباسي وفي منأى من الضربات البيزنطية كما يمتاز بأراضيه الخصبة ومياهه الوفرة. كما أن المدينة تقع في قلب منطقة تقطنها قبائل بربرية مثل هوارة، ومكناسة، وملاية، ومزاتة، ونفوسة، وكلهم ينتمون إلى المذهب الإباضي.<sup>1</sup> وبعد إنشاء المدينة اجتمع علماء المذهب ثم تداولوا وقالوا: "لا بد لنا من إمامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو تكون مأوى وقرا لإمامتنا، وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن إلى ذلك واستحسن رأيهم.<sup>2</sup>

في سنة 160هـ/776م، انعقد مجلس يضم رؤساء القبائل الإباضية وفقهائها لاختيار إمام يحكمهم، وقد أجمع مشايخ الإباضية على اختيار عبد الرحمن لدينه وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات، بالرغم من وجود رئيس أو رئيسان من كل قبيلة في المجلس، وكلهم أهل للإمامة، فقد كان عبد الرحمن أحد حملة العلم الخمسة إل المغرب، ونائب أبي الخطاب في القيروان، فضلا عن أنه لا ينتمي إلى قبيلة تمنعه إذا تغير أو تبدل، ومن ثمة سيسهل عزله في حالة انحرافه عن الدين، وارتضته القبائل لتتحاشى تسلط إحداها عليها إذا ما حظي رئيسها بالإمامة.<sup>3</sup> كما اشترك في مبايعته إباضية طرابلس، فاتسع سلطانه بين القبائل العديدة التي دخلت في طاعته، وعلى رأسها نفوسة. وبهذه البيعة، أصبح عبد الرحمن أول أئمة الدولة الرستمية التي اشتق اسمها من اسمه. وساد الأمن والسلام ربوع بلاده، إذ كان يسلك في الناس سبيل العدل والإنصاف، وكان لا يستبد برأي، وإنما كان يصطنع أهل الرأي في مجلس الشورى، وانتشرت في المشرق الإسلامي أخباره، فكثر أنصاره.<sup>4</sup> لقد راعى الناخبون أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهي:<sup>5</sup>

1. الفضل : ويراد به العدالة، وهي عند الإباضية جماع صفات الكمال الأخلاقي، من حيث

سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس.

<sup>1</sup> الباروني سليمان باشا، أئمة وملوك الإباضية، مراجعة محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، 2005. ص 49؛ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 46.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 50.

<sup>3</sup> عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 151.

<sup>4</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 461.

<sup>5</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 117.

2. إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه، شرط أساسي من شروط الإمامة عند الإباضية، ويعرفونه بأنه العلم الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

3. الوصية : ويراد بها إيصاء الإمام القائم بمن يخلفه، ولا تكون هذه الوصية فرضاً ملزماً للتابع، وإنما هي توجيه، وقد قلدوا في ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضي الله عنهما. وكان الإباضية أميل لتابع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى. وكان عليه أن يستشيرهم في كل ما يهم الإمامة من الشؤون، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد.

4. ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية في فرض سلطانه على الناس، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لا بد أن يتم على أساس الشورى، أي حرية الرأي والاختيار. فإذا توفى الإمام أو شغل منصبه لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفرًا منهم، ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحدًا منهم إمامًا، والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق، ولا هي ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق.

نجح عبد الرحمن بن رستم في أمد وجيز للغاية في أن يؤسس دولة قوية، هاجم جيرانها، واتصلوا به يطلبون صداقته، ويسعون إلى خطب مودته وموادعته. وهاجر إليها كثير من أهل المشرق والمغرب والأندلس، ونزلوا بها، وقصدها التجار، والكتاب، والعلماء، ورجال الصناعة والفن، وأرباب الحرف من سائر أنحاء العالم الإسلامي. وقد كان لذلك أكبر الأثر في تطور عمرانها، ونمو تجارتها، واتساع مواردها الاقتصادية. وشهد المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم سنوات من الهدوء والأمن لم يعرفها من قبل، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات.<sup>1</sup>

امتدت حدود هذه الدولة من تلول منداس قرب غليزان، إلى فرندة وجبال عمور، ومن هناك إلى وادي ميزاب وإلى ورقلة، ومن ناحية الشرق امتدت إلى تيسمسيلت والسرسو، وثنية الحد وإلى قصر البخاري

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 464.

وأعالي وادي الشلف، ومن هناك إلى شرقي الأغواط وتوقرت ووادي ريغ. وعموما فقد بسطت نفوذها في كل المغرب الأوسط ما عدا تلمسان ومنطقة الزاب.<sup>1</sup> وتنضوي تحت حكم الرستميين كل من جزيرة جربة وبلاد الجريد وجبل نفوسة وجنوب طرابلس.<sup>2</sup>

تجمع المصادر على أن عبد الرحمن بن رستم قد نجح في توطيد أركان دولته، وإرساء دعائمها، وقد كرس جهوده لمواجهة الأعباء الداخلية، والتزم بتطبيق سياسة المهادنة في الخارج. فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولاً أن يكسب لها كل دواعي الأمن والاستقرار. فاتجه بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار، وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبي القاسم الذي تولى أمر الصفرية في سجلماسة سنة 170هـ/786م. ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار بسجلماسة. فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم بمدرار بن اليسع، وكان لهذا الزواج أثره في تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفي دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين. وقد ذهب عبد الرحمن في مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود، حيث رغب في تقوية فرص السلام مع أعداء دولته وهو الوالي العباسي في القيروان روح بن حاتم، فكاتبه يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام 171هـ/787م.<sup>3</sup>

**ظهور الانقسامات المذهبية : دب الخلاف بين الإباضيين بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ/787م، حول طريقة تعيين الإمام، لأن عبد الرحمن كان قد أوصى قبل وفاته بأن يتم اختيار خليفته ستة من شيوخ المذهب، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب. وبعد نقاش طويل انحصر الاختيار بين عبد الوهاب ومسعود الأندلسي، ثم انسحب هذا الأخير. فتولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن الإمامة، وهكذا غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى. فانشق فريق من الإباضية على الإمام الجديد منكرًا مبدأ الوراثة، فنشأت فرقة إباضية جديدة تسمى "النكارية"، أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وفرقة أخرى تسمى "الوهبية" أي أنصار عبد الوهاب.<sup>4</sup>**

<sup>1</sup> الجليلي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 221.

<sup>2</sup> بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 48.

<sup>3</sup> الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 106-107.

<sup>4</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 118.

هذه الخلافات المذهبية والسياسية أدت إلى حروب كثيرة بينهم. وأصبحت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة، الذين أقاموا على أنفسهم إماما من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن والنكارية، وانفصلت عنهما جماعات إباضية أخرى.<sup>1</sup>

**أدوار الدولة الرستمية :** يميز المؤرخون بين ثلاثة أدوار مرت بها الدولة الرستمية منذ تأسيسها إلى غاية سقوطها، وهذه الأدوار هي :

**الدور الأول :** يشمل عهد عبد الرحمن وإبنة عبد الوهاب بن عبد الرحمن، وابنه أفلح بن عبد الوهاب، وعو يمثل سطوة الإمامة وقوتها، وقدرتها على إحباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبي سواء بالقوة كما فعل الإمام عبد الوهاب أو عن طريق السياسة كما فعل أفلح بن عبد الوهاب.<sup>2</sup>

**الدور الثاني :** يشمل عهد أبي بكر بن أفلح واخيه أبي اليقظان محمد، وهو يمثل الصراع العنصري والقبلي، وفيه خفت صوت الإمامة ووهنت قوتها، ونجحت بعض العناصر في اغتصاب السلطة في تاهرت، ولم يستردها البيت الرستمي إلا بتعزيد عناصر أخرى. ولم يحل دون سقوط الإمامة سوى ضعف العصبية من جراء الصراع بينها، وأسلوب الملاينة والموازنة الذي اتبعه أبو اليقظان محمد في موقفه من هذه العصبية.<sup>3</sup>

**الدور الثالث :** يشمل الدور الأخير من الحكم الرستمي إمامتي أبي حاتم يوسف بن محمد، واليقظان بن أبي اليقظان، وهو يتميز بتداعي الامامة واضمحلالها، وتحكم عامة تاهرت في تعيين الأئمة وعزلهم، وطمع الطوائف والفرق غير الإباضية في تقلدها إنهاء للحكم الرستمي الإباضي، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة وأقاليمها الشرقية. كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمي وتديبرهم المؤامرات والاعتيالات ضد بعضهم البعض لتسلم الحكم. وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بني رستم على يد الدولة العبيدية سنة 297هـ/909م.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 119.

<sup>2</sup> عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 155.

<sup>3</sup> نفسه.

<sup>4</sup> نفسه.

## العلاقات الخارجية

علاقة الرستميين بالعباسيين: كان العباسيون يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثا شرعيا تركه المويون لهم، وعلى هذا الأساس نظروا إلى الدولة الرستمية المستقلة عنهم نظرة عداً باعتبار مؤسسيتها قاموا باقتطاع أجزاء من ممتلكات العباسيين. يضاف إلى ذلك ما كان سائداً من عداً تقليدي بين الخلافة العباسية السنية وبين الإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج. هذا ما يفسر مطاردة ولاة العباسيين بإفريقية لعبد الرحمن بن رستم منذ اللحظات الأولى التي ظهر فيها على مسرح الأحداث في بلاد المغرب، لأنه كان في نظرهم خليفة لأبي الخطاب عدوهم اللدود، لذا حرص محمد بن الأشعث -الوالي العباسي- في القيروان سنة 144هـ/761م، على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتله لأبي الخطاب، ولكن عبد الرحمن تمكن من الانسحاب واللجوء إلى المغرب الأوسط.<sup>1</sup>

وقد أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، عمر بن حفص عامله على إفريقية أن يحصن قاعدة طبنة، كخطوة أولى لمواجهة الخوارج في بلاد المغرب، ومنهم الإباضيون الذين تحصنوا بتاهرت، مما دفع بعبد الرحمن إلى تكوين تحالف إباضي صفري يضم سائر القوى المعارضة للخلافة العباسية، وتمكن عمر بن حفص من إلحاق هزيمة ثقيلة بعبد الرحمن بن رستم، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليه. لذا اقتنعت الخلافة العباسية بالاحتفاظ بإفريقية، وترك المغرب الأوسط، ولعل ذلك ما يفسر مسلك الوالي العباسي روح بن حاتم الذي تولى أمر إفريقية سنة 171هـ/787م، إذ حرص على تحسين العلاقات بينه كمثل للعباسيين وبين عبد الرحمن بن رستم، فتمت المودعة بينهما، واستمرت في عهد ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن. وتعتبر هذه المودعة اعترافاً رسمياً من العباسيين وممثليهم في بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الأوسط.<sup>2</sup> غير أن هذا التحسن في العلاقات بين الدولتين، ما لبث أن تحرك ثانية وعاد إلى التوتر، حيث لجأ إلى بغداد بعض الثائرين ضد الإمام أفلاح، فوجدوا ترحيباً من الخليفة العباسي المأمون، وفي عهد الخليفة الواثق بالله، قبض العباسيون على محمد بن الأفلاح الملقب بأبي اليقظان، الذي كان يقوم بأداء مناسك

<sup>1</sup> الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 187-188.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 188-189.



الحج في مكة، ونقل إلى بغداد حيث سجن هناك. ثم عادت هذه العلاقات لتحسن من جديد، في عهد المتوكل على الله الذي أطلق سراح أبي اليقظان وسمح له بالعودة إلى بلاده.<sup>1</sup>

**علاقة الرستميين بالأغالبة:** غلب على العلاقات بين بني رستم والأغالبة طابع العداوة، وتخللتها بعض الفترات من التعايش السلمي. وكان لذلك أسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية، فالأغالبة كانوا سنة، على المذهب المالكي المعروف بعدائه لسائر النحل المتطرفة، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الإباضي، وهو رغم اعتداله يميل إلى تكفير مخالفيه. وفضلا عن ذلك فالأغالبة كانوا عمال الخلافة العباسية وأدائها في افريقية، ورمز نفوذها الوحيد في بلاد المغرب، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة أصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها. ومن ثم كان على أمراء بني الأغلب أن يناهضوا أئمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الأغالبة باعتبارهم أعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسالمة والحرص على تحاشي أسباب التطاول والصراع.<sup>2</sup>

ومن الأمثلة عن هذه العلاقات أن الأغالبة نازعوا الرستميين في أملاكهم بنفوسة، فلما استعانت قبيلة هواره على بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196 هـ، ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، زحف عبد الوهاب بمشود هائلة من بربر نفوسة، وضرب الحصار على طرابلس، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادنته على أن يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل بينما يضع الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والصحراء.<sup>3</sup> وفي سنة 227 هـ، أسس أبو العباس محمد بن الأغلب مدينة تجاور تاهرت سماها العباسية، وكان الغرض منها احتلال المكانة التجارية والعلمية التي كانت تشغلها مدينة تاهرت ومنافستها، فسكت عليه الإمام أفلح، ولم تم بناؤها وثب عليها بجيوشه، وأخلاها من السكان ثم أحرقها، ومع ذلك لم يعمل أبو العباس محمد على محاربة الرستميين.<sup>4</sup>

**علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس:** نشأت علاقات متينة بين بني أمية في قرطبة وأئمة الرستميين في تاهرت، وقامت بينهم علاقات من الصداقة والمودة، فإن العباسيين الذين كانوا يحاربون بني

<sup>1</sup> الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 190.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 196؛ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 187-188.

<sup>3</sup> ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 156-157؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 482.

<sup>4</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 482.

أمية في الأندلس، كانوا أيضا أعداء للإباضية في تاهرت، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية، وكانت السفن تتردد بين وهران وألمرية حاملة البضائع والعلماء والمسافرين إلى كل من الثغرين.<sup>1</sup> وقد كثر وفود أهل الأندلس إلى تاهرت. ومما دفع أمراء بني أمية إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منفذ إلى بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط؛ لأنَّ المغرب الأدنى (إفريقيَّة) قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين، والمغرب الأقصى فيه دولة الأدارسة التي كانت علاقتها بالأمويين في الأندلس تتسم بالعداء، وبقيام هاتين الدولتين أوصدت جميع المنافذ والسبل في وجه الإمارة الأموية الفتية، وبذلك أصبحت الدولة الرستمية هي الشريان الحيوي الوحيد الذي بإمكانه تغذية تلك الإمارة بالحياة، والتعاون معها سياسياً واقتصادياً وحضارياً. ويذكر الباروني عن أفلح بن عبد الوهاب: "وله مع ملوك الأندلس وغيرهم مواصلة وارتباط ومودة يهادونه بالهدايا النفيسة ويهاديهم بمثلها وله عندهم شهرة ومقام رفيع، ينظرونه بعين المهابة ويرمقونه بأعين الجلال والاعتبار".<sup>2</sup>

**علاقة الرستميين بالسودان:** قامت بين الدولة الرستمية والسودان الغربي والسودان الأوسط، علاقات تجارية كثيفة، حيث كانت تخرج القوافل التجارية من ورجلان (ورقلة)<sup>3</sup> محملة بالمنتجات الصوفية والقطنية والكتانية، وأواني الزجاج والفخار، والخزف، والملح، وتعود محملة بالذهب والعاج وجلود الحيوانات. وكانت الطرق إلى بلاد السودان مسلوكة مأمونة بما أبداه أئمة بني رستم من الهمة بمحافظه قوافل التجارة إلى الشرق والغرب والسودان.<sup>4</sup>

### حضارة الرستميين

**الحياة العلمية:** لقد عرفت الدولة الرستمية في المغرب عددًا غير قليل من الأئمة العلماء الفضلاء، وقد كان أئمتها من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع. "وكان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الأصول، والفقه، والتفسير، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو، والإعراب

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 483.

<sup>2</sup> الباروني سليمان باشا، مرجع سابق، ص 236.

<sup>3</sup> Lewicki Tadeusz, op. cit., p. 532.

<sup>4</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 487؛ الباروني سليمان باشا، مرجع سابق، ص 235.

والفصاحة وعلم النجوم".<sup>1</sup> وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره، فكان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك، وكان الإمام عبد الوهاب محبا للعلم تواقا إلى المعرفة، وقد صنفا كتبا لم تصل إلينا.<sup>2</sup> وبعث هذا الإمام بألف دينار إلى إخوانه في البصرة ليشتروا له بها كتبا، فبعثوا له أربعين حملا منها، فلما وصلته نشرها وقرأها حتى على آخرها بأجمعها.<sup>3</sup> وكان الإمام أفلح بن عبد الوهاب عالما في الحساب والفلك، كما كان أدبيا شاعرا. وإذا لم يكن الإمام أعلم علماء المملكة أو أمهرهم في النقاش فهو ملم إلماما عميقا بالمسائل الدينية ولا يتوقف عن التعمق فيها.<sup>4</sup>

ولم يكن هذا الشغف بالعلم يقتصر على الأئمة فقط، ولكن كثيرا من رعاياهم كانوا يبدون نفس الحماس ابتداء من أفراد عائلاتهم. وكان عامة الناس وبعض من أفراد الشعب يتحمسون لعلم النجوم والفلك، وقد قال فرد من الرستميين: "معاذ الله أن تكون أمة (جارية) لا تعلم منزلة بيت فيها القمر".<sup>5</sup> وأصبحت تيهرت معدن العلم والأدب ومحط رحال الطلبة، وقد نسب إليها علماء كثيرون في مختلف الفنون، منهم أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز، والشيخ أبو سهل، وأبو عبيدة الأعرج، وابن الصغير صاحب أخبار الأئمة الرستميين، وأبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي.<sup>6</sup>

**الحياة الاقتصادية:** تحيط بمدينة تاهرت أراضي زراعية خصبة، وقد كانت تلك الأراضي مصدر ثروة لسكان المدينة، كما أن موقع المدينة كفل لها عملية التبادل التجاري بين السلع والبضائع القادمة من الساحل ومن وراء البحار، والسلع القادمة من الصحراء ومن افريقيا السوداء. وغدت تاهرت أيام الرستميين سوقا كبيرا ومقصدا للتجار الذين جلبهم الأمن الذي عمل الرستميون على استتبابه في البلاد، وسهولة التبادل الذي تقدمه تاهرت.<sup>7</sup> "واتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقال ليس أحد

<sup>1</sup> أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر (ت 471هـ))، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حققه إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1982. ص 99.

<sup>2</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 488.

<sup>3</sup> أبو زكرياء، مصدر سابق، ص 100.

<sup>4</sup> مارسية جورج، مرجع سابق، ص 131.

<sup>5</sup> المرجع السابق، ص 132.

<sup>6</sup> المليبي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقدمه محمد المليبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت). ج 2، ص 79-80.

<sup>7</sup> مارسية جورج، مرجع سابق، ص 127-128.

ينزل من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة ... والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون".<sup>1</sup>

**الحياة الفنية والعمرانية :** نتيجة للإزدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة الرستميين، أقبل سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والمباني الفخمة، خاصة في عصر الإمام أفلح الذي بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها في مضمار الحضارة، فقد "ابتنى القصور واتخذ بابا من حديد وبني الجفان وأطعم فيها أيام الجفان ... وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجروا الأهر".<sup>2</sup>

ويبدو أن فن العمارة الرستمي كان متأثراً بمؤثرات فارسية سواء في تأسيس المدن أو تخطيطها، أو في تشييد المساجد والعمائر والقصور. بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تاهرت.<sup>3</sup> إضافة إلى هذا فقد انتقلت بعض المؤثرات المعمارية السورية (الأموية)، وبعض أشكال الزخرفة المصرية إلى بلاد المغرب.<sup>4</sup>

## المحاضرة الثامنة

<sup>1</sup> ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985. ص 31-32.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ص 52.

<sup>3</sup> عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 301.

<sup>4</sup> مارسية جورج، مرجع سابق، ص 133-134.

## 2 - دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ/788-990م)

هي دولة علوية هاشمية يعود نسبها إلى آل البيت، جدها الأعلى هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. التجأ إدريس، كما هو معلوم، إلى المغرب فرارا من بطش العباسيين. وهي أول تجربة نجاح فيها آل البيت في إقامة دولة لأنفسهم، وهي لبست شيعية كما يعتقد البعض، لأن الأدارسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين؛ لأن الشيعة هم أنصارهم، ولا يمكن للعلويين أن يكونوا شيعة لأحد، وقد كان مذهبها سنيا.<sup>1</sup>

وقد استمرت هذه الدولة ما يزيد عن القرنين، أي ضعف المدة التي قضتها كل من دولة الأغالبة ودولة الرستميين، وخاضت صراعا قاسيا مع الفاطميين ومع الدولة الأموية في الأندلس. ومع ذلك فقد بقيت دولة صغيرة سواء في مساحتها أو مكانتها أو قوة حكامها، ولكن بفضلها ثبت مذهب السنة والجماعة في المغرب الأقصى، كما كان لها فضل في انتشار اللغة العربية بالمنطقة.

### ظروف قيامها : قام العلويون بثورة ضد الخليفة العباسي موسى الهادي (169-170هـ/785م-

786م)، وقت الحج سنة 169هـ/785م، برئاسة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن، ولكن الخليفة ضربه بقوة في واقعة "فخ" (بين مكة والمدينة) وفشل أحفاد الحسن بن علي في إقامة دولة لأنفسهم. ومن نتائج هذه المعركة، أن عددا من العلويين تمكنوا من الفرار إلى أطراف البلاد منهم يحيى بن عبد الله الذي هرب إلى بلاد الديلم جنوبي بحر قزوين. واسعدهم حظا هو إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي تمكن من الوصول إلى المغرب ثم لحق به أخوه سليمان.<sup>2</sup>

وكان مع إدريس مولى بربري يدعى راشد، فرمه إلى المغرب متتكرين في زي التجار. فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفي شخصيته. وبعد سنتين، أي سنة 171هـ/787م، ظهر الاثنان في طنجة، وأخذ راشد يدعو لأمير علوي يحمل راية الإسلام ويخلص الناس من الظلم والزندقة. ولكنهما لم ينجحا في طنجة حيث زندقة برغواطة ضاربة أطنابها.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 123.

<sup>2</sup> ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 75-76.

<sup>3</sup> إسماعيل محمود، الأدارسة (172-375) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991. ص 56.

انتقلا بعدها إلى مدينة ويلي، وهي مركز تجاري ممتاز وسوقا عظيما للقبائل، وهي تقع في منتصف المسافة بين فاس ومكناس، ونظرا لموقعها ونشاطها فهي أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية، وقد نزلها إدريس سنة 172هـ/788م. وكانت هذه المدينة تمثل من جهة أخرى مركز قبيلة أوربة البرنسية التي بدأ فيها إدريس يدعو لنفسه،<sup>1</sup> وبسرعة اكتسب عددا من الأنصار لعدة عوامل:<sup>2</sup>

1- كان شيوخ أوربة يبحثون عن زعيم يقودهم في ثورة ضد برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي الدولة الرستمية في تيهرت.

2- قرابة إدريس من الرسول صلى الله عليه وسلم كافية لاجتذاب القلوب إليه.

3- تعاطف سكان المغرب مع العلويين بعد مأساة فخ وما وقع لهم من تشريد وقتل.

بعد مدة قصيرة، أصبح إدريس أمير ويلي وزعيم قبيلة أوربة، ثم التحق به عدد من القبائل التي كانت ناقمة على برغواطة، مثل غمارة، زواوة، سدراتة، نفزة، مكناسة... وبهذه القبائل شكل إدريس قوة اخذت تنتقل في حوض سيباو (سيبو) تخضع القبائل أو تتلقى طاعتها وفي أقل من عام امتد سلطان إدريس من تلمسان إلى ريف تامسنا ومن طنجة إلى وادي أم الربيع.<sup>3</sup>

**وفاة ادريس الأول :** أثار هذا التوسع والنشاط السياسي انتباه الخليفة هارون الرشيد، وأدرك أن هذه الدولة يمكن أن تشكل خطرا على الخلافة العباسية، لأن أميرها علوي من أهل البيت، ولأهل البيت مكانة في قلوب الناس، خاصة بعد الذي تعرضوا له على أيدي الأمويين والعباسيين، وقيام إمارة علوية في أي رقعة من البلاد الإسلامية، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون.

وتباحث هارون الرشيد مع وزيره جعفر البرمكي أمر إدريس، فتبين لهما استحالة إرسال جيش إلى المغرب لمحاربة هذه الدولة الناشئة، وتقول الروايات أنهما لجأ إلى الحيلة، حيث أرسلوا رجلا يدعى سليمان

<sup>1</sup> إسماعيل محمود، مرجع سابق، ص 57.

<sup>2</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 125.

<sup>3</sup> نصر الله سعدون عباس، دولة الأدارسة في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1987. ص 72-76.

بن جرير، دخل في خدمة إدريس وكسب ثقته ثم دس له السم ما أدى إلى وفاته سنة 175هـ/791م<sup>1</sup>، وتذكر بعض المصادر أن إبراهيم بن الأغلب هو الذي زود سليمان بن جرير بالسم القاتل<sup>2</sup>. وربما كانت هذه الحكاية محاولة تفسير وفاة إدريس وهو في عنفوان شبابه وقوته<sup>3</sup>.

**إدريس الثاني** : في هذه الظروف تظهر مهارة راشد الذي كان المدبر الحقيقي لهذه الدولة ومحور العمل فيها، ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفي ترك إحدى جواريه حاملا وتسمى كنزة. فاجتمع راشد مع رؤساء القبائل وقال لهم : "فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكرا ربيناه، فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تبركا بأهل البيت وذرية النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم من ترضونه وتروونه أهلا لذلك"<sup>4</sup>. ولما جاء المولود ولدا سموه إدريس على اسم أبيه، وبايعوه وهو في المهد، ولما بلغ الغلام عشر سنوات بايعوه مرة أخرى سنة 186هـ/802م، واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة. كل هذا لأنه كان عزيزا على شيوخ القبائل أن يضيع السلطان الذي وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوي.

ولم يبدأ إدريس الحكم الفعلي مستقلا بنفسه إلا في سنة 192هـ/808م، بعد ذلك وفد على إدريس عدد من مهاجري العرب من القيروان خاصة ودخلوا في خدمته، ثم خرج من مدينة ويلي وبنى مدينة فاس واتخذها عاصمة لملكه ابتداء من سنة 196هـ/811م. ويمكن التمييز بين ثلاثة أطوار مرت بها هذه الدولة :

- 1. طور التأسيس** : الذي اقتزن بعهد إدريس الأول (172-177هـ/793-788م) أي قيام الدولة بالتفاف فريق مهم من البربر حول إدريس، ومبايعة القبائل الكبرى له، حسب التقاليد الإسلامية.
- 2. طور القوة** : ويقتزن بعهد إدريس الثاني وابنه محمد بن إدريس (177-221هـ/828-901م) حيث جرى تدعيم الدولة الناشئة باستحداث عدد من البنيات والمؤسسات. من أهمها : بناء

<sup>1</sup> ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972. ص 21-23.

<sup>2</sup> الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 136.

<sup>3</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 128.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 24.

فاس واتخاذها كعاصمة للدولة. ثم تنظيم الإدارة واستحداث بعض النظم الإسلامية كالوزارة والكتابة والقضاء والإمامة. ثم فتح العاصمة الجديدة لتحتضن، فئات مهمة من السكان الوافدين من القيروان والأندلس، وتجريدها من تأثير العصبية والطابع القبلي، مما جعل العناصر المختلفة من سكان المدينة تنصهر في وحدة بشرية تمثل، بوجه عام التركيب السكاني الجديد. إضافة إلى بداية إشعاع اللغة العربية من فاس كلغة دين وثقافة.<sup>1</sup>

**3. طور الإنهيار (221-375هـ) :** ترك إدريس الثاني غداة وفاته عدة أولاد منهم الكبار والصغار. وتولى خلافته أكبر أبنائه، محمد بن إدريس، غير أنه اعتبر المملكة التي تركها له أبوه إرثا لا بد من توزيعه على الورثة. هل استند في ذلك إلى المبادئ الشرعية؟ أم هل استمع إلى نصيحة جدته كنزة كما تذكر بعض المصادر؟ أم هل كان المقصود من ذلك التوزيع هو حضور الدولة الإدريسية بصورة مباشرة في أقاليم مختلفة؟ ومهما كان الدافع، فإن هذا التقسيم كانت له سلبيات وإيجابيات.<sup>2</sup> فتقسيم المملكة إلى عدة ولايات أدى إلى إضعاف السلطة المركزية ونشوء إمارات إقليمية تنزع بطبيعتها إلى الاستقلال الذاتي على أوسع مدى. وقبل إعطاء مثال على المشاكل التي ترتبت عن ذلك التوزيع، من الضروري إعطاء صورة إجمالية عن التوزيع.

قسم محمد بن إدريس المملكة إلى ما لا يقل عن تسع أقاليم:<sup>3</sup>

1. محمد بن إدريس فاس وناحيتها.
2. القاسم بن إدريس طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان وبلاد مصمودة وما والاها.
3. داود بن إدريس هواره وتسول ومكناس وجبال غياثة وتازة.
4. عيسى بن إدريس شالة وسلا وأزمور وتامسنا.
5. يحيى بن إدريس البصرة وأصيلا والعرائش إلى بلاد ورغة.

<sup>1</sup> إسماعيل محمود، مرجع سابق، ص 71-82.

<sup>2</sup> مارسية جورج، مرجع سابق، ص 148.

<sup>3</sup> ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 51.



6. عمر بن إدريس مدينة الليكسوس ومدينة ترغة وبلاد صنهاجة وغمارة.

7. أحمد بن إدريس مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا.

8. عبد الله بن إدريس أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة وسوس.

9. حمزة بن إدريس تلمسان وأعمالها.

وما لبث أن نشب الخلاف بين الإخوة، إذ ثار عيسى بن إدريس، على أخيه محمد، فكلف هذا الأخير أخاه القاسم الوالي على طنجة بالذهاب لمعاقبة الثائر. لكن القاسم رفض القيام بالمهمة. فكلف محمد أخاه عمر بها. فتوجه هذا الأخير الذي كان واليا على غمارة بجشود هائلة من بربر صنهاجة وغمارة، وأمدّه أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قواته مع قوات عيسى وهزمتها، فعزل عيسى عن ولايته، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهذا الانتصار، فولاه على ما فتحه من أعمال عيسى، وأمره بالسير لمحاربة القاسم، فانتصر عليه بظاهر طنجة.<sup>1</sup> والظاهر أن الصلح وقع بعد ذلك بين الإخوة. والجدير بالذكر هو حصول نوع من الاستقرار السياسي داخل الإمارات الإدريسية المنتشرة بأجزاء المغرب. فلم تسجل ثورات للسكان ولا معارضة للقبائل. هل يرجع ذلك إلى التقديس الذي حظيت به الأسرة في أعين المغاربة المعاصرين أم إلى أسباب أخرى ؟

الملاحظ هو اندماج الأسرة الإدريسية في المجتمع المغربي عن طريق المصاهرة والتطبع بأخلاق أهل البلاد مما جعل السكان في مختلف الأقاليم لا يتعاملون معهم كأجانب ودخلاء، بل يعتبرونهم منهم ويحترمونهم ويضعونهم في الصدارة لشرف نسبهم. ويمكننا أن نعتبر أن احترام الشرفاء كسلوك شعبي بدأ منذ ذلك العهد يتحول إلى مبدئٍ سياسي بعد ذلك بعدة قرون.<sup>2</sup>

## نهاية الأدارسة بالمغرب

في سنة 305هـ/917م، وفي إمارة يحيى أقبال جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله الفاطمي وهدفه إزالة دولة الأدارسة، وانتصر مصالة، ثم ولي على المغرب

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 395.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 416.

الأقصى شيخنا من شيوخ البربر وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة، وجعله عاملا على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يقمه أميرا على فاس، وكان من الطبيعي أن يطمع موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الأدارسة في دولتهم، وبالفعل تم له ذلك سنة 313هـ/925م، فقام بالقضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النصر. ورغم ظهور زعيم جديد من أحفاد الأدارسة إلا أنه دخل في صراع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس على مصير المغرب الأقصى.<sup>1</sup>

### 3 - دولة الأغالبة في افريقية (184-296هـ/800-909م)

**ظروف قيامها :** شكلت ولاية افريقية مشكلة بالنسبة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية، فهي بلد بعيد عن مركز الخلافة، تعيش فيه جماعات متحاربة متعادية، بعضهم من أهل السنة، وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم، وبعضهم عرب وبعضهم بربر. وكان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال تلك الولاية، فانهى رأي هارون الرشيد إلى أن يولي هذه الناحية رجلا من كبار رجاله ذوي الكفاية، ويطلق يده حتى يستطيع ان يخلص افريقية من الفوضى والقلق. ووقع الاختيار على هرثمة بن أعين، وهو صاحب تجربة وحنكة في شؤون الحرب والولايات، ذلك أن ولاية افريقية كانت تعاني من مشكلة أساسية كثيرا ما أرقّت الدولة العباسية، وتتمثل المشكلة في عرب افريقية الذين كانوا يتجمعون في المعسكرات في سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة... وتنافسهم وحرهم بعضهم ببعض، وإعلانهم الحرب على كل وال تعينه الدولة.

كان هدف الوالي الجديد وضع حد لتلك الفتنة التي كان يثيرها أولئك العرب البلديون، وقد نجح في مهمته إلى حد بعيد، حيث تمكن خلال السنتين التي حكمهما (180-181هـ/796-797م)، من إعادة الهدوء إلى افريقية وجدد ما تخرب من موانئ ومدن ومنشآت، وأعاد ثقة الناس في الدولة، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق واهتم ببناء القصور للعباد والزهاد. وبعد سنتين من النشاط رأى هرثمة أنه قد أنهى مهمته في افريقية، وأعاد الأمن للبلاد، ولكن الحقيقة أن افريقية قد أتعبته واشتقت نفسه إلى

<sup>1</sup> السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 79-80. مؤنس حسين، معالم، ص 131-132.

بغداد، واقترح على هارون الرشيد أن يعين في مكانه على ولاية إفريقية إبراهيم بن الأغلب عامله على الزاب.<sup>1</sup>

**أصل الأغالبة :** أول الأغالبة الذين دخلوا إفريقية هو سالم بن عقال التميمي. ويعود أصله إلى عرب مصر، وكان من كبار رجال الجيش، وقد كلف بالمسير مع نفر من جند مصر إلى إفريقية مع عامل العباسيين على إفريقية، وهو محمد بن الأشعث الخزاعي، لمحاربة الخوارج. واستقر عاملاً على الزاب، وكان يقطنه عدد كبير من بني تميم، ثم عهد إليه الخليفة العباسي المنصور بولاية إفريقية سنة 148هـ/765م، ولكن سهماً أصابه في حرب الخوارج سنة 150هـ/767م، أدى إلى وفاته فعرف بالشهيد. وكان ابنه إبراهيم صغيراً، لم يتجاوز عمره عشر سنين، ففضى صباه في الدرس والتحصيل في مصر. ولما شب دخل في جند مصر، ثم أتيح له دخول المغرب في ولاية الفضل بن روح فيما بين 177-179هـ/794-796م، وتوصل بفضل شجاعته وحسن تديره إلى تولي منطقة الزاب في ولاية هرثمة بن أعين لإفريقية، ثم قام بنصرة واليها الجديد محمد بن مُقاتل العكي بعد أن تغلب عليه أحد عماله سنة 181هـ/798م، وردّه إلى إمارته. ولما علم الخليفة هارون الرشيد بحسن بلائه وإخلاصه للخلافة، جعله والياً على البلاد في مستهل سنة 184هـ/800م.<sup>2</sup> وأسرة الأغالبة أسرة راقية في مضممار الحضارة، عملت على نشر الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها، أي في إفريقية وصقلية، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور، وشيدوا المساجد والحصون، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون.<sup>3</sup>

وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً، كان يروم مواصلة التحصيل والتعلم، ولكنه عندما دخل إفريقية انخرط في السياسة واشتغل بها، فجمع التميميين حوله، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب، فأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقربه منه وأعلى مكانته. ولذلك حينما أراد هرثمة العودة

<sup>1</sup> البلاذري، مصدر سابق، ص 327.

<sup>2</sup> إسماعيل محمود، الأغالبة (184-296هـ)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1972. ص 19-27.

<sup>3</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 286.

إلى بغداد، اقترح على هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب عاملا على افريقية.<sup>1</sup> فوضع إبراهيم عدة شروط منها:<sup>2</sup>

1. تعيينه على افريقية بصورة دائمة، لأنه شديد الإخلاص للبيت العباسي، وهو رأس بني تميم.  
2. يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار، ويستغني عن مائة ألف دينار كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لإفريقية.

3. حرية التصرف داخل ولايته مع تعهده بأن يتصرف كعامل عباسي تابع للخلافة.

4. أن تكون الولاية في بني الأغلب ما داموا على الطاعة والولاء.

واشترطت الخلافة العباسية من جهتها شرطين هما :

1. أن تقوم الخلافة بتعيين قاضي القيروان.

2. أن يكون للخليفة الحق في عزل الوالي الأعلي، إذا أساء التصرف، بشرط أن تقيم بدله واليا أغلبيا آخر.

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك، تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية افريقية سنة 184هـ/800م، وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ افريقية، من معالمها :

- حكم افريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية.

- استقلال داخلي لبني الأغلب.<sup>3</sup>

ويبدو أن الخلفاء العباسيون كانوا يخشون من مطامع الأدارسة، والرستميين، فرضي الرشيد بإقامة دولة الأغالبة في المغرب الأدنى لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الأدارسة في المغرب الأقصى، والرستميين في المغرب الأوسط، وكلاهما كان يتطلع إلى فصل بلاد المغرب عن بقية العالم الإسلامي.

<sup>1</sup> البلاذري، مصدر سابق، ص 327.

<sup>2</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 95-96.

<sup>3</sup> النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 54.

وإذا كان إبراهيم قد حقق غرضه، فإنه لم يتنكر للخلافة، بل وفى لالتزاماته معها. فقد خطب للخليفة على المنابر، ورفع شعار بني العباس، ولم ينقطع عن دفع الإتاوة السنوية، ونقش اسم الخليفة على السكة، وأطلق على حضرته الجديدة اسم العباسية. ولم يتوان في الكيد للأدارسة جرياً على سياسته في إرضاء الخلافة، ونجح إلى درجة كبيرة في إثارة العراقيين والقلاقل لجيرانه في الغرب عن طريق المكائد والدسائس. فلا غرابة إذا رضيت الخلافة عن حكمه، وساعدته في الأزمات العصبية التي صحبت قيام الدولة، وأمدته بالأموال ليوطد نفوذه.<sup>1</sup>

**مراحل دولة الأغالبة : ينقسم تاريخ العصر الأغلبي في جملته إلى ثلاث فترات هي :**

**1. فترة التأسيس (184-223هـ/800-838م) :** وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وابنيه أبي العباس وزيادة الله. وتتميز هذه الفترة بكثرة العراقيين والمتاعب التي كانت كفيلة بالقضاء على الإمارة في مهدها. وأهم هذه المتاعب شغب الجند وثوراتهم على الأمراء الأغالبة.

تفطن إبراهيم منذ البداية لخطر الجند وما يمكن أن يحدثوه من متاعب، ولذلك بدأ ولايته ببناء مدينة العبّاسية أو القصر القديم سنة 184-185هـ/800-801م في الجنوب الشرقي من القيروان، واتخذها عاصمة له، ونقل إليها السلاح والعدد، ثم انتقل إليها بأهله وحرمه وعبيده وأهل الثقة من جنده. واتخذها عاصمة لإفريقية ومقراً للإمارة. وكان يقصد بذلك التحرر من تسلط الجند المشاغبين ومدافعهم، وكان من بين التدابير التي لجأ إليها ليحقق ذلك أنه راح يشتري أفراداً من السودان بحجة استخدامهم في الصناعة تخفيفاً على الناس من أعبائها، لكنه استخدمهم في الجيش ودرهم على حمل السلاح<sup>2</sup>. وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني، وكان التميميون قليلين، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى إفريقية أيام الأغالبة ولكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبلية لا تقل عن قواته. فكان

<sup>1</sup> إسماعيل محمود، الأغالبة، ص 31.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 32.

همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به. وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين هما : البربر المستعربة، والصقالبة، والسودان.<sup>1</sup>

ومن الثورات التي اندلعت في عهد إبراهيم بن الأغلب، ثورة حمديس الكندي سنة 186هـ/802م، الذي خرج على الأغلبة والعباسيين في آن واحد ونزع السواد شعار العباسيين، فأرسل إبراهيم أحد قادته لقتاله، فتمكن منه ونكل به وبأتباعه، ثم دخل تونس، وأعاد الأمن إليها. وفي سنة 189هـ/805م ثار عليه أهل طرابلس، وكانت تابعة له، وأخرجوا منها واليه سفيان بن المضاء لسوء معاملته لهم. فأرسل إبراهيم جيشاً أحضر الثوار إلى القيروان، ثم عفا عنهم وأعادهم إلى بلادهم. ومع ذلك فإن الفتن والثورات لم تهدأ في طرابلس، فكانت تهيح بين الحين والآخر.

أما أخطر هذه الثورات على إبراهيم، هي ثورة قائد جيشه ووزيره عمران بن محالد سنة 194هـ/810م الذي شعر بقوته بعد الخدمات الكبيرة التي قدمها لولي أمره إبراهيم بن الأغلب، وحقدا على إبراهيم على ما وصل إليه من مكانة، فاستولى على القيروان، وغلب على معظم بلاد إفريقية، واستمرت الثورة عاماً كاملاً حتى استعاد إبراهيم سلطته بعد أن دفع عطاء الجند الخارجين عليه، واضطر عمران إلى الفرار إلى بلاد الزاب، ودخل إبراهيم القيروان، فقلع أبوابها، وهدم أسوارها إمعاناً في الانتقام.<sup>2</sup>

توفي إبراهيم بن الأغلب سنة 196هـ/812م، بعد أن حكم إفريقية مدة اثنتي عشرة سنة. وكان فقيهاً، أديباً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي ونجدة.<sup>3</sup> وخلفه في الحكم ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (196-201هـ/812-817م) الذي كان يلي طرابلس لأبيه، فأخذ أخوه زيادة الله البيعة له من رؤساء الجند، ثم دخل القيروان سنة 197هـ/812م.

عامل عبد الله سكان البلاد معاملة تنطوي على الكثير من العنت والجور، ولم يصغ إلى نصائح أهل الرأي فيها. وعدّل نظام الضرائب فجعل العشر ضريبة مالية ثابتة، حتى لا يتأثر الدخل السنوي بالخصب والجذب، فسخط الناس عليه، وطالبوا بإلغائها والعودة إلى نظام العشر الذي اعتادوه، كما عامل

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 97.

<sup>2</sup> النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 56؛ إسماعيل محمود، الأغلبة، ص 33-34.

<sup>3</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 94.

أخاه زيادة الله معاملة سيئة، وكذلك فعل مع أهل بيته. وكانت وفاته في سنة 201هـ/817م. فتولى الإمارة بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم (201-223هـ/817-837م).<sup>1</sup>

وقد شهدت دولة الأغالبة في عهده أزهى أيامها، رغم أنه ظل لفترة منشغلاً بإخماد ثورة منصور الطنبذي الذي حاصر القيروان وهدد وجود الدولة، "واضطرت أفريقية نارا، ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبذي أزيمة أمورهم وولوه على أنفسهم"،<sup>2</sup> إلا أن زيادة الله تمكن من الانتصار عليه.

ويعد الاستيلاء على صقلية أهم إنجاز حققه زيادة الله ابن الأغلب فقد جهز جيشاً كبيراً بإمرة قاضى القيروان أسد بن الفرات سنة 212هـ/827م. فاستولى على جزء كبير من الجزيرة، وزحف على عدة مدن فيها.<sup>3</sup>

ومهما قيل عن أخلاق زيادة الله، وما اتبعه من سياسة العنف والقسوة،<sup>4</sup> فقد كان له مآثر لا يمكن جحودها. فقد ذكر ابن الأبار أنه كان "أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانا، وأكثرهم بيانا، وكان يعرب كلامه ولا يلحن".<sup>5</sup> كما كان سياسيا ذاهية تمكن من كسب الفقهاء إلى جانبه، وكبح جماح الجند بعناده ومثابرتة، واستمال البربر إلى جانب الإمارة بدهائه وبصيرته، وحول القوى المناوئة له إلى طاقات استعان بها في الظهور على مسرح الأحداث في البحر المتوسط.<sup>6</sup>

## 2. فترة الازدهار والاستقرار النسبي (226-289هـ/840-902م) : وقد شملت هذه الفترة

حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبي من حيث الملكات، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة. ويرجع معظم السبب في ذلك إلى فتح صقلية الذي فتح مجالا واسعا أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على الغنائم، تاركين أمراء بني الأغلب في سلام.

<sup>1</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 95؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 293-294.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ج 1، ص 100.

<sup>3</sup> الثعالبي، مرجع سابق، ص 221؛ مؤنس حسين، معالم، ص 100-105.

<sup>4</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 96.

<sup>5</sup> ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 163.

<sup>6</sup> إسماعيل محمود، الأغالبة، ص 43.

توفي زيادة الله سنة 223هـ/838م بعد ولاية حافلة بجلائل الأعمال والخطوب، استمرت أكثر من إحدى وعشرين سنة، وخلفه في الإمارة أخوه الأغلب أبو عقال المعروف بجَزْر أو خزرون (223-226هـ/838-841م) وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين تولوا الإمارة على التوالي بعده، وأحسن سيرة من أخويه، فقد أجزل للعمال الأرزاق والصلوات الكثيرة وتمتعت البلاد في زمنه بالأمن والاستقرار، بفضل الإجراءات التي اتخذها، فقد ألغى الضريبة الثابتة، وأعاد ضريبة العشر، وحرص على دفع عطاءات الجند في مواعيدها المقررة، وكف أيدي عماله عن التطاول على أموال الناس والمظالم بزيادة رواتبهم، ودفعها لهم في أوقاتها، كما منع صنع النبيذ والخمر في القيروان، وعاقب على بيعه وشربه. ولم يعكر صفو الأمن في عهده إلا حركة الخوارج في إقليم الجريد فيما بين مدينتي قفصة وقسطنطيلية (توزر) الذي تسكنه قبائل لواته وزواغة ومكناسة، فاضطر إلى إرسال جيش لقتالها سنة 224هـ/838م. وحقق بعض الإنجازات العسكرية بالاستيلاء على بعض حصون «صقلية» وهزيمة أسطول روميّ جاء لمحاصرة الجزيرة، وتوفي أبو عقال سنة 226هـ/841م، بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً وكان في الثالثة والخمسين من عمره، وخلفه ابنه [أبو العباس محمد الأول](#).<sup>1</sup>

كان [أبو العباس محمد](#) (226-242هـ/841-856م) من أطول أمراء الأغالبة عهداً، ولم يكن على شيء من العلم والدين، ولكنه كان مظفراً في حروبه. شاركه أخوه أحمد أمور الحكم في بدء عهده ثم خرج عليه وحاول أن يستقل بالحكم سنة 231هـ/844م، إلا أن محمداً كان له بالمرصاد فاستعاد سلطانه منه.

كانت أوضاع البلاد مستقرة في عهد محمد، ولم يعكر صفوها إلا بعض الاضطرابات التي قام بها قواد الجند في الزاب بقيادة سالم بن غلبون، وفي تونس بقيادة عمر بن سليم التجيبي الذي تفاقم أمره. وكان عصره عصر عظماء العلماء العبّاد مثل أبي محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت227هـ/842م)، والبهلول بن عمر بن صالح (ت231هـ/846م)، والإمام سحنون بن سعيد (ت240هـ/854م) الذي تولى القضاء سنة 233هـ/847م، والذي يعود إليه نشر المذهب المالكي في إفريقية بفضل كتابه المعروف بالمدوّنة، إلى جانب أعمال عمرانية متعددة. أما عن السياسة الخارجية في

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 307-308.



عهد محمد بن الأغلّب فأهمّها استمرار الفتوح في صقلية، والاستيلاء على مناطق واسعة من قلورية (كلايرية) في جنوبي إيطاليا حتى قارت قواته روما.<sup>1</sup>

توفي محمد بن الأغلّب سنة 242هـ/856م بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، تاركاً الملك لابن أخيه أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلّب (242-249هـ/856-863م)، وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم، وأرفقهم بالرعية، مع دين واجتناب للظلم على حداثة سنه، فانصرف إلى أعمال البر والخير، وجعل على قضاء القيروان أبا الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروفة. وكانت مدة حكم أبي إبراهيم أحمد هادئة، لم يعكر صفوها إلا اضطراب الأوضاع في منطقة طرابلس. أما عن الفتوح في صقلية، فقد كان مظفراً في حروبه فيها، فاستولى على قصربرانه (كاسترو جيوفاني)، وهي من مدن صقلية المهمة، وكان للخليفة العباسي نصيب في مغنمها، مما يشير إلى أن الدولة الأغلبية كانت ما تزال تعترف بسيادة الخلافة العباسية، على الضعف الذي أصابها.<sup>2</sup>

لم يطل حكم أحمد، فقد توفي سنة 249هـ/863م، وعمره ثمان وعشرون سنة، وخلفه في الإمارة أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني (249-250هـ/863-864م)، الذي كان عاقلاً حليماً حسن السيرة، جميل الأفعال، ذا رأي ونجدة وجود، نظم أمور صقلية، وأقر حاكمها الذي كان على عهد أخيه، ولم تقم ثورات في الداخل في عهده القصير، إذ حكم سنة واحدة وخلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو الغرائيق (250-261هـ/864-875م)، وكان أبو الغرائيق صغير السن حين تولى الإمارة إلا أنه كان حسن السيرة في الرعية جواداً، غلبت عليه اللذات والشراب والميل إلى الطرب والاشتغال بالصيد، ولاسيما صيد الغرائيق، فلقب بها، بنى قصرًا في موضع السهّلين يخرج إليه لصيدها، وأنفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب وبدد أموال الدولة على لهوه فلم يترك لخلفه إلا خزانة فارغة. إلا أن حروبه في صقلية كانت مظفرة تخللتها بعض الانتكاسات، كما استطاع إعادة فتح جزيرة مالطة سنة 261هـ/874م، وأسر ملكها، بعد أن كانت قد خرجت من يده سنة 255هـ/869م.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> الثعالبي، مرجع سابق، ص 230-233.

<sup>2</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 112-113.

<sup>3</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 114-116.

لم تكن علاقات أبي الغرائق جيدة مع الدولة الرستمية والقبائل الخاضعة لها، مما اضطره إلى إرسال جيش كبير لقتالها بقيادة أبي خفاجة محمد بن إسماعيل، وتمكن هذا الجيش من تحقيق الانتصار في البداية، ولما اندلعت الحرب من جديد، انتهت المعركة بكارثة لجيش الأغالبة، فقتل قائد الجيش وجماعة من كبار قادته وكثير من جنده<sup>1</sup>.

### 3. فترة التدهور (289-296هـ/902-909م) : توفي أبو الغرائق سنة 261هـ/879م وقد

حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف، وعاصر من الخلفاء العباسيين، المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وأقره كل منهم على ولايته. وخلفه في الحكم ابنه أبو عقاب الأغلب وكان صغيراً فتولى عمه إبراهيم بن أحمد أبو إسحق الوصاية عليه، وحلف الأيمان على حسن الوصاية، ولكنه حث بأيمانه واغتصب الولاية لنفسه.<sup>2</sup> ويعتبر حكم إبراهيم بن أحمد (261-289هـ/875-902م) بداية التدهور، وكان رجلاً غريب الأطوار، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسي، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد، وانتهت حياته مجاهداً في جنوبي إيطاليا.<sup>3</sup>

استقر إبراهيم بن أحمد في القصر الجديد بمدينة رقّادة، التي بناها، وحصل على بيعة مشايخ أهل القيروان ووجوه أهل إفريقية وجماعة من بني الأغلب، وكان حكمه من أطول عهود أمراء الأغالبة. بدأ عهده بكف الظلم ونشر العدل، وكان يجلس بنفسه للمظالم في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين من كل أسبوع. لقي إبراهيم بن أحمد متاعب من الطولونيين جيرانه في مصر، منذ أن فكر العباس بن أحمد بن طولون بالاستقلال عن والده، وتأسيس إمارة له في برقة وطرابلس وما يحتله من المناطق التابعة للأغالبة سنة 265هـ/878-879م. وإضافة إلى هذا الاضطراب الذي حدث في طرابلس فإن اضطرابات أخرى حدثت في تونس وبلاد الزاب، فقد ثارت على إبراهيم قبيلة هوارة، وقبيلة لواته في باجة سنة 268هـ/881-882م ولكنه قمعهما بقسوة متناهية. كذلك كانت حروب إبراهيم في صقلية ناجحة، ففتح

<sup>1</sup> النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 68.

<sup>2</sup> ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 171-172.

<sup>3</sup> مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 106.

سرقوسة وطبرمين. واعتمد في جيشه على السودان، فاشترى أعداداً كبيرة منهم، وأحسن تدريبهم، وكساهم الكساء البديع، وكانوا ساعده في الحروب، وأظهروا من الشجاعة والقوة ما لا يوصف، وبعد أن اطمأن إليهم سعى إلى التخلص من الجند الصقليين.

تبدل مزاج إبراهيم بن أحمد نحو القسوة الدموية في المدة الأخيرة من حكمه، فكان يجمع الثورات بعنف، ويعمل على التخلص من مسببها، بأساليب دموية، وشدد قبضته على البلاد فعهد إلى أبنائه بولاية الأقاليم، وجعل مركزه بين رقادة وتونس. ودبت في نفسه الريب من رجال الدولة والمقربين فراح يعمل على تصفيتهم بطريقة سوداوية، ومن ذلك ما قام به سنة 280هـ/893م من الإيقاع برجال قلعة بلزّمة جنوب غربي باغاية، وهم من القيسية، فكان ذلك المسمار الأول في نعش الدولة الأغلبية، إذ عم الاضطراب أنحاء البلاد. وأدى عنف إبراهيم وقسوته وسوء فعله إلى غضب أهالي القيروان وسخطهم عليه، فشكوه إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله ويطلبون عزله. ولكنه تنبه لنفسه، وأحس بقرب نهاية حكمه. ويبدو أن الذي نبهه هو الخطر الفاطمي ففي سنة 280هـ/893م، دخل أبو عبد الله الشيعي داعي دعاة الفاطميين إلى منازل كتامة، وثبت أقدامه فيها، ثم بدأ يغير على بلاد الأغلبية، فخاف إبراهيم بن أحمد، وعاد إلى رشد، وأصلح من أمر نفسه، واجتهد في لم شعث إمارته.<sup>1</sup> فاعتزل الحكم سنة 288هـ، واستقام ولبس الخشن من الثياب، وأخرج من في سجون، ورد المظالم، وأسقط المكوس، وأخذ العشر بدلاً من الضريبة الثابتة، وترك لأهل الضياع خراج سنة سماها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالاً عظيمة، ليوزعوها على الفقراء والمساكين، ثم استقر بعد ذلك في صقلية مجاهداً حتى وفاته سنة 289هـ/902م.<sup>2</sup>

تولى الإمارة بعد إبراهيم ابنه أبو العباس عبد الله (289-290هـ/902-903م) وكان في صقلية حين تنازل له أبوه عن الإمارة، ويمكن عدّ عهده القصير استمراراً لعهد والده. وكان ساعد أبيه الأيمن في حروبه في مختلف الأقاليم، ولاسيما في قيادة الجيوش في صقلية، كما كان شجاعاً عالماً بالحرب، حسن النظر في الجدل. أعاد النظر في أعمال أبيه، وقام بتغييرات في ولاية الأقاليم. ذكر المؤرخون أن المدة القصيرة

<sup>1</sup> مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 107.

<sup>2</sup> ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 172-174؛ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 116-120.

التي حكمها نسخت العذاب الذي كان سائداً في عهد أبيه، فأظهر التقشف، ولبس الصوف، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف، وجالس أهل العلم وشاورهم، فكان يجلس معهم على الأرض، وترك قصر الرقادة وسكن داراً مبنية بالطوب، وكان لا يركب إلا إلى الجامع.<sup>1</sup> واصطدم مع داعي دعاة الفاطميين الذي استولى على ميله.<sup>2</sup> كان عهد أبي العباس عبد الله، استمراراً للضعف والوهن الذي دب في أوصال الدولة منذ عهد أبيه، حيث اضطرب الحكم في أيامه حتى أنه حبس ابنه زيادة الله، فانتقم منه بالتآمر مع فتيانه من الصقالبة، وقتلوه سنة 290هـ.<sup>3</sup>

وآلت الولاية والإمارة إلى ابنه المقيد زيادة الله بن أبي العباس (290-296هـ/903-909م) الذي خرج من السجن إلى سرير الملك، وكان آخر أمراء الأغالبة في بلاد المغرب، فأخذ البيعة لنفسه من أهله وأقاربه، وقرأ كتاب البيعة على منبر المسجد الجامع بتونس، ولكنه، نتيجة للطريقة التي وصل بها إلى الحكم بدأ عهده بإراقة الدماء، فغدر بأعمامه وإخوته، وقتل بعض فتيانه وقادته، واشترى بعضهم بالمال.<sup>4</sup> وشهد عهده انتصارات داعي دعاة الفاطميين أبي عبد الله الشيعي المتوالي، على كثرة الحشود التي حشدتها لقتاله، فاستولى أبو عبد الله على سطيف، ثم قسنطينة سنة 292هـ/905م بعد معركة حامية، خسر فيها زيادة الله جنده وسلاحه وماله، وتوالت هزائم الأغالبة يوماً بعد يوم، فاستولى أبو عبد الله على بلزّمة وطبّنة، وزحف على بقية المدن حتى بلغ مدينة الأرنؤس وهي آخر معاقل زياد الله الثاني، فسقطت في يد الشيعي بتاريخ 24 جمادى الآخرة سنة 296هـ/18 آذار 909م بعد معركة حاسمة. وهكذا أخفق زيادة الله في وقف المد الفاطمي، على الرغم من محاولاته الاتصال بالخلافة العباسية طالباً النجدة من الخليفة المكتفي بالله أولاً ثم من الخليفة المقتدر بالله، وتحريضه الفقهاء في إفريقيّة وعامة الشعب على الفاطميين، وإعادة العاصمة إلى رقّادة. فدب اليأس إلى قلبه وانغمس في اللهو والشراب. وبعد سقوط الأرنؤس في يد

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 317.

<sup>2</sup> الميلي مبارك، مرجع سابق، ص 127.

<sup>3</sup> النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 79.

<sup>4</sup> نفسه.

الفاطميين فر إلى طرابلس ومنها إلى مصر ففلسطين، وتوفي في الرملة سنة 296هـ/909م، وانقرضت بذلك دولة بني الأغلب.<sup>1</sup>

## الحياة الحضارية

**الفن والعمران :** خلال القرنين من الزمان الذي دامته دولة الأغالبة، تقدمت البلاد تقدما كبيرا محسوسا، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية، فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك.

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدي القيروان وتونس الجامعين، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة، وإعطاؤهما صورتها الباقية إلى اليوم. وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه عقبة بن نافع بناء بدائيا، ثم جدده حسان بن النعمان وأكمله حنظلة بن صفوان، ولكن الذي أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدده مئذنته وأعطاه صورته الحالية، كان زيادة الله بن الأغلب، وأقام في قاعة الصلاة عددا كبيرا من الأعمدة الرائعة التي أحيطت أطرافها بأشرطة من الخشب ذات التزيينات المحفورة. وقام بعض خلفاء زيادة الله بإضافة عناصر عمرانية وتزيينية جديدة إلى ذلك المسجد.<sup>2</sup> وقد أنفق في ذلك مالا جزيلا طوال سنوات كثيرة. وكان يقول : "ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان، وبياني قنطرة أم الربيع، وبنياي حصن مدينة سوسة، وتوليتي أحمد أبي محرز قضاء افريقية".<sup>3</sup> وإلى زيادة الله أيضا تنسب أعمال ضخمة في جامع تونس الذي كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بناه سنة 114هـ/732م، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلبي، فهو الذي أعطاه صورته البديعة التي يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة

<sup>1</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 320.

<sup>2</sup> ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 163-164.

<sup>3</sup> ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 106؛ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 61.

الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة، وهذا الرجل هو الذي أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد.<sup>1</sup>

وكان الذي بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة،<sup>2</sup> ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في إفريقية. أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط في إفريقية، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط.<sup>3</sup>

وكانت عناية بني الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها، ومن أهم منشآتهم العسكرية التي يذكرها لهم التاريخ، دار الصناعة في تونس وأخرى تماثلها في سوسة، وللدارين صفحات مجيدة في تاريخ النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط.<sup>4</sup>

ومن نماذج المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات، التي كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد، وحاميات رسمية. ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد، أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات. ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس، وتوقد فيها النيران وقت الخطر، وقد بقي من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب.<sup>5</sup> وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر، وطول ضلع سوره أربعون مترا تقريبا، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأستوانات، مرفوعة على أعمدة، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية، وهذه القاعات والأستوانات يؤدي بعضها إلى بعض، وهي تستعمل

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 109.

<sup>2</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 357.

<sup>3</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 109.

<sup>4</sup> نوح فوزية محمد عبد الحميد، البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف الدكتور أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984-1985. ص 74.

<sup>5</sup> سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 364؛ نوح فوزية محمد عبد الحميد، مرجع سابق، ص 87.

للنوم والأكل، ويليهما صحن الرباط، وهو مساحة واسعة مسورة تدور حولها البوائك،<sup>1</sup> وهذه البوائك طابقان وهي تفتح أو تطل على صحن الرباط وفي ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط.<sup>2</sup>

وشبيهه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة. والرباط طابقان يخصص الثاني للحراسة والعبادة، وفي العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه.<sup>3</sup>

وفيما يتعلق بالعمارة المدنية، فقد بنى الأغلبة مدينتين ملكيتين كانت أولاهما العباسية أو القصر القديم. وقد بناها إبراهيم بن الأغلب على نحو 6 كلم جنوبي القيروان، وقد بناها إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة، وبنى فيها قصره ومساكن حاشيته والمسجد الجامع، ودار سك النقود والدواوين، وأحاطها بالأسوار القوية، وجعل من خلفها خندقاً يحيط بها. وفي وسط المدينة ساحة واسعة عرفت بالميدان كانت تستخدم لعرض الفرسان، واتسعت العباسية، وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة وفنادقها وأسواقها.<sup>4</sup> أما المدينة الثانية فهي رقادة التي بناها إبراهيم بن أحمد، على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان، وقد ابتدأ بها سنة 263هـ/ 977م وبنى فيها القصور، منها قصر بغداد، وآخر يسمى المختار، وقدر لهذه المدينة أن تنمو وتتسع باطراد، فأضاف إليها الأمراء من بعده قصوراً أخرى أشهرها قصر العروس الذي بناه زيادة الله الثالث بن عبد الله على أربع طبقات، وبنى محمد بن أبي عقاب الأغلب مدينة قرب تاهرت سماها العباسية. اهتم بنو الأغلب بالمنشآت الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجل في إفريقية اهتماماً كبيراً، ووجهوا إليها عناية خاصة. ومن هذه المنشآت صهاريج المياه وجبابها، والصهريج خزان ماء فوق الأرض، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى أربعين متراً وعمقها نحو العشرين، ثم يبنون عند الماء حجرة أوقبوا واسعا بالحجر أو الطوب

<sup>1</sup> البوائك : مفرد البائكة، أطلقت هذه التسمية في الشام على المخزن الكبير الذي يتكون من قناطر تعلو أبوابه المتعددة. البائكة مجموعة الأعمدة المتتابعة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف. هذا اللفظ يستعمل بشكل أساسي في العمارة الدينية وعلى وجه التحديد في عمارة المساجد وهي تدل على صفوف القناطر التي تقع الأروقة بينهما وهي عادة تحاط بصحن مكشوف وترتكز على أعمدة أسطوانية أو دعائم مربعة أو مستطيلة المقطع وتؤلف عادة مع سور المسجد رواقاً واحداً.

<sup>2</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 109-110.

<sup>3</sup> البكري، مصدر سابق، ص 35-36؛ مؤنس حسين، معالم، ص 109-110.

<sup>4</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 110.

الأحمر أو الطوب المطلي بالبلاط الذي لا تؤثر فيه المياه، وقد بطن بالرخام، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك، فإذا اكتمل جعلوا له سلا لم تؤدي من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء في الغرفة أو القبو السفلي عند الماء، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما ما عدا المداخل وفتحات السلا لم. وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر، ويستخرج الماء عن طريق فتحات في السقف تشبه الآبار، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء، أو يهبطون بأنفسهم بالسلا لم.<sup>1</sup>

وأكثر الأغالبة كذلك من بناء المواجهل وهي أحواض ماء واسعة وعميقة، يتجمع فيها ماء المطر، وهي دائما مكشوفة وقد يقام في وسط المواجهل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة. وقد أنشأ زيادة الله بن أبي العباس عبد الله المعروف بزيادة الله الثالث، وهو آخر الأغالبة، في مدينة رقادة، بركة أو ماجلا طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة، وأجرى إليه الماء بالسواقي، وسمي هذا المواجهل بالبحر. وكان في القيروان وحدها خمسة عشر ماجلا.<sup>2</sup>

**الحياة الاجتماعية والفكرية :** يبدو أن الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالبة، لم تمس الحياة العامة إلا في حالات قليلة، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها، دون أن تعطي اهتماما كبيرا للمنازعات والمنافسات، بين أهل الحكم أو أهل الحرب. ويمكن القول إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها، متأثرة طبعا بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى، ولكنها سارت بصورة ما، فأخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الإفريقي طريقها وصورها التي ثبت عليها بتوالي الأجيال.<sup>3</sup>

فالقيروان مثلا اتسعت وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيرواني محلي، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من الأثرياء وأهل الصناعة. وغدت القيروان سوقا تجاريا كبيرا تخرج منه القوافل إلى بلاد السودان، ومركزا تجاريا هاما للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب، وقامت فيها حلقات

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 110.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 111؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 372-374.

<sup>3</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 111.



الدرس في المساجد، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زيا خاصا بأهل العلم والدراسة، وفي هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبي عثمان سعيد بن الحداد وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرنا وديننا عاليا.<sup>1</sup>

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام، لأن بني الأغلب رغم حياتهم الطويلة في افريقية، ظلوا منعزلين في عواصمهم التي بنوها، مثل العباسية وقرقندة، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة. وهنا تبرز شخصية أبي سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المعروف بـ "سحنون"، فقد كان رجلا لبقا ذكيا "ورعا فاضلا جليل القدر... يعرف حقه لدينه وابوته"<sup>2</sup>، ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأوائل وتوفي سنة 240هـ/858م. ويكتب عنه أبو العرب قائلا: "اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة والترك، ألا يقبل من السلطان شيئا... وكان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكان فيه حلقات للصفرية والإباضية مظهرين لزيغهم، وكان حافظا للعلم ولم يكن يهاب سلطانا في حق يقيمه"<sup>3</sup>. وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبارة، وتعرض للأذى على يد زيادة الله الأول الذي اشتدت محنة خلق القرآن في أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة، وقد تولى سحنون -الذي ولى القضاء بعد المحنة- الانتقام من عبد الله بن أبي الجواد القاضي الأسبق الذي امتحن القضاة وأذى بعضهم، فجلده حتى مات. وقد ندم سحنون على ذلك ندما شديدا وظل يتنصل من موت ابن أبي الجواد إلى آخر أيامه. وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 112.

<sup>2</sup> المالكي، مصدر سابق، ج 2، ص 153.

<sup>3</sup> أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، كتاب طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني بيروت، (د ت). ص 101-102.

بالسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف بـ "المدونة"، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً في نفس الوقت. وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامي.<sup>1</sup>

ومن العلماء أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي الذي سمع من الامام مالك، وهو الذي كان يقول: " لا تمر الليالي والأيام حتى تمتحى كتب أبي حنيفة من إفريقية".<sup>2</sup> ومنهم أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان الذي كان من أهل العلم وقيل لسحنون "أن أسد بن الفرات قال القرآن مخلوق فقال سحنون والله ما قاله ولو قاله ما قلناه"، وقد ولاه الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قيادة الجيش الذي وجهه لفتح صقلية، فمات فيها ولم يستكمل فتحها.<sup>3</sup> ومنهم القاضي أبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن يسار بن مسلم الكنايني، وهو من المعدودين من أصحاب مالك، ولاه إبراهيم بن الأغلب القضاء على كره منه. ولما ولي القضاء جمع كل عبد له وماشية وأراهم للناس وقال لهم: "هذا ما أملكه، وإنما أوقفتكم عليه لتعلموا أنني متى زدت على ذلك فاعلموا أي خائن".<sup>4</sup> كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد العالم الحكيم أبي يعقوب إسحاق بن عمران البغدادي فقد استدعاه الأمير زيادة الله الثالث لمعالجته.<sup>5</sup> وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً.

وكان بعض علماء إفريقية من أصل مشرقي والبعض الآخر رحل إلى المشرق طلباً للعلم. فالتقدمي أخذوا الحديث والفقه على يد الإمام مالك نفسه، أما الأجيال اللاحقة فكانوا مستمعين لأتباعه أو أتباع هؤلاء الذين لم يبارحوا إفريقية. وبذلك تصبح القيروان مدينة متبحرة في العلم تجذب الطلبة الذين يستقرون فيها. فأهل المدينة من التجار والعمال الزراعيين يكونون بعد عملهم حلقة استماع حول الشيوخ المشهورين، وكان المستمعون يأتون من الأندلس ومصر وحتى من بلاد فارس. ويقال أن أندلسياً كان ذاهباً إلى المشرق وعندما سمع سعيد بن الحداد يشرح الأحاديث صاح قائلاً: "ما لي حاجة بالتقدم إلى المشرق وأنا أعلم

<sup>1</sup> مؤنس حسين، معالم، ص 113.

<sup>2</sup> المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 244.

<sup>3</sup> أبو العرب، مصدر سابق، ص 82-83.

<sup>4</sup> المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 278.

<sup>5</sup> الجليلي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 270.

أني لا ألقى مثلك" وأصبحت شهرة القيروان تتعدى البحار وسوف تعبر العصور. فشهرة القيروان التعليمية وخاصة شهرة سحنون أكثر من أي عالم آخر بكتابه "المدونة" الذي كان سببا في كتابة خمسة تعليقات ضخمة لتفسيره، سيؤكدون الانتصار الساحق للمذهب المالكي في بلاد المغرب حتى وصول العثمانيين.<sup>1</sup>

وخلاصة القول أن القيروان غدت في عهد الأغالبة مركزا رائعا للحياة الدينية الإسلامية، والعلوم، والآداب، كلها على حد سواء، نظرا لموقعها في منتصف الطريق بين المشرق الإسلامي وغربه.<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> مارسية جورج، مرجع سابق، ص 107.

<sup>2</sup> Schacht J., **Aghlabids, religious life**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden. 1986. p. 249.